

## الفن في روايات جرجي زيدان (الحلقة الثالثة: الحكمة)

أ. د. منظور أحمد خان

الأستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها،  
جامعة كشمير، سرينغر

تتكون الحكمة عند زيدان عادة من بعض الوقائع التاريخية المتصلة بجماعة أو جماعات من الناس، ثمّ من القصة الغرامية للعاشقين المفتونين. وعلاوة على هذا تتناول أحيانا حكايات متشعبة متفرقة لا رابط بينها وبين حوادث الرواية من التاريخية والخيالية. وهذا ما نراه في "الحجاج بن يوسف" التي ومع أنها عبارة عن وصف نزاع بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، ثم عن وصف مهمة البطل الخيالي وحبه وسعي الوغد وراء التفريق بين الحبيبين، يدخل المؤلف في أحداثها قصص العشاق المشهورين كليلى الأخيلية وتوبة، ثمّ كجميل وبثينة على نحو مفتعل كل الافتعال. كذلك يبدو جانب الحب للحبكة دخيلا على الوقائع التاريخية فلا ينطبق عليها من حيث المنطق ولا العاطفة (١). على هذا النحو تتنوع الأحداث والشخصيات إلى حدّ تصبح الرواية مجرد مجموعة من الأحداث العرضية حيث لا يوجد شيء موجّه اللهم إلا شخصية أو شخصيات تتواصل أن تظهر على مسرح الأحداث حتى النهاية.

وفي "العباسة" لو لم يُكثر المؤلف في حشد المواد الجامدة واستطراد المواقف وتكرارها سردا ومشهدا، لكانت هذه الرواية أحداثها متعقبة بحاسة السببية أحسن التعقب، ومن ثمّ حبكة مثالا في تنظيم عال. ونرى المؤلف يربّب أحداث الرواية على النحو التالي، فإنه في بداية الأمر يكشف أمر البطلة العباسية وولديها، ثم يقدم جعفر بن الهادي والفضل بن الربيع وهما يسعان وراء الإيقاع بحبيب البطلة جعفر البرمكي. ثم نعلم أنّ زبيدة زوج هارون الرشيد هي أيضا ناقمة على جعفر، ثمّ تتقدم الأحداث حتى نرى الرشيد يتأسّف على ردّه إسماعيل بن يحيى خائبا، إثارا طلب جعفر في أمر تزويج بنته، ثم ينكشف له أمر جعفر في إطلاق سراح العلوي عدوه الألدّ، فيعتزم على إبادته. بينما هو متردد في الإقدام على هذا الأمر الجسيم إلى أن تدلّه زبيدة على

فضيحتة الكبرى التي لا تقتضي التأخير لحظة واحدة، وهي علاقته السرية بالعباسة وتوليدته منها ولدين اثنين. إذن لا يرى بدا من القضاء على جعفر والعباسة وولديهما لينتقم من مولاه الخائن ويمحو العار إلى الأبد.

ومن الاستطرادات والمواد الجامدة في الرواية المذكورة أعلاه وصف مجلس الأمين وقصره، وما يجاوره من الحدائق والبساتين، ثم ما تحتضن هذه من الطيور والأسماك والوحوش. ومنها مجلس آخر يحضره إسماعيل بن يحيى وجعفر بن الهادي، وهما يذكران مناقب البرامكة ومثالهم. ومنها أيضا ذكر موكب هارون الرشيد نحو الملعب، ثم وصف قصره غرفة تلو غرفة من الرياش الفاخر وتزيين الجدران بالذهب وغير الذهب. ومنها أيضا الوفد الهندي الذي جاء بالتحف والهدايا المتكونة من السيوف والكلاب لهارون الرشيد (٢). ولا تقتصر هذه الظاهرة على هذه الرواية، وإنما تعدّها إلى جميع روايات زيدان. ونرى أن رغبة المؤلف الملحّة في حشد المواد الجامدة ترجع إلى ولعه الشديد بتعليم القارئ التاريخ، ومنه تفضيله عنصر الحكاية على جميع العناصر الأخرى من الخلفية والحبكة والشخصية. ونتيجة لهذه الظاهرة نجده يلخّص الحوادث التاريخية التي لو عُني واحد ببسطها وتمديدها لمألت المجلدات بآتمّها. وفي "أبي مسلم الخراساني" نصادف عدة حوادث من هذا القبيل، ومنها انهزام مروان بن محمد، ثمّ فراره إلى مصر ومقتله هناك، ثمّ تقتيل أبي العباس السفّاح بقية الأمويين تحريضا من أبي سلمة في إحدى الولائم التي أقام بها السفّاح لهم، ثمّ قتل أبي سلمة نفسه دسيسة، ثمّ قتل سليمان بن كثير (٣).

وإذا تكون هذه حال الحبكة، فكيف نرجو أن تتضمّن سرا من الأسرار، ولا سيما إذا يندفع المؤلف في تلخيص الحوادث التي مرّ ذكرها من قبل عن طريق السرد والمشهد، وكأنه يقدّم سلسلة تلفزيونية، فيدكّر المتفرّج في بداية كل حدث عرضي جديد ما حدث أنفا. وعلى سبيل المثال نلتقي بالمؤلف في "أبي مسلم الخراساني" وهو يكشف للقارئ عن أصل الضحّاك خادم الدهقان المهذار. وبعد ذكره انتمائه إلى الخوارج وكونه أحد أمرائهم يأخذ يشرح للقارئ مشروعه لنيل أهداف حزبه السياسية

بدء من دخوله في خدمة الدهقان متنكراً، ومحاولة استغلاله كل من بنت الدهقان جُلنار وأبي مسلم، وكأنه ينسى بأن حوادث الرواية التي سبق ذكرها سرداً ومشهداً قبل تعريف الضحّاك من جديد، لا تتناول شيئاً سوى قصة الضحّاك مع الدهقان ووساطته بين الدهقانة وأبي مسلم ومحاولة خديعته كل من الدهقانة وأبي مسلم (٤).

كذلك تتدفق روايات زيدان بالمصادفات الغريبة غير المقنعة والتي تجعلها مبتذلة تافهة كابتدال الحكايات الشعبية وتفاهتها. ففي "عبد الرحمن الناصر" نرى المؤلف يكلف خادماً خصياً بتزويد الزائر بالمعلومات عن القصر الزاهر ونفقات بنائه، وكأنه مهندس معماري خبير. وأكبر منها حادثة الفقيه ابن عبد البرّ عندما دعاه الخليفة الناصر لإلقاء الخطاب على الوفد الرومي، فيشتبه عليه الأمر وتتضارب في ذهنه الأفكار حتى يسقط على الأرض مغشياً عليه (٥). وفي "فتح الأندلس" نجد مصادفة غريبة في نهاية الرواية، وهي اجتماع شمل الأب وابنه المفقود منذ سنين بإشارة من رجل كان هو المسئول للتفريق بينهما. وأغرب منه بكاء الأب على مجرد استماعه اسم الابن المفقود، ثمّ عدم اكتراثه لرجل هو أصل هذه المصيبة (٦).

ثمّ هناك مصادفة عامّة يهدف المؤلف من خلالها إلى حلّ العقدة في نهاية الرواية، ومنه إلى جمع شمل الحبيبين (٧). وعادة يتناول حلّ العقدة عند زيدان مكافأة الخيار وعقاب الأشرار. ففي "الحجاج بن يوسف" مثلاً نلتقي بعرفجة أبي البطلة الذي يملك شخصية خبيثة ماكرة طامعة، ويقصد إلى استغلال محمد بن الحنفية بتقديم كرسي المختار المشهور له ليكسب مالا ورياسة. ثمّ يريد أن يكافئ إحسان منجيه وخطيب بنته بالغدر والخيانة ليتخلّص منه، ويتوسّل إلى الحجاج كي يعرض بنته عليه كالعروس ليربح بأموال طائلة عن طريق المهر. ولكن أنّى له أن ينال مراده، وإنما على العكس يلقي الخزي والعار. فأولاً يُهان على يد محمد بن الحنفية، وثانياً لم يُكتب له أن ينال شعرة من البطل، بل يلقي حتفه على يد الحجاج ملاذه الأخير. ومن ناحية أخرى ينجح البطل في الاتصال بحبيبته رغم وشاية الواشين أمام أشد جبايرة زمنه وأظلمهم يعني الحجاج (٨).

ونرى أن ظاهرة المكافأة والعقاب تحمل المؤلّف أحيانا على الإطالة دون مبرّر واف. ففي "عبد الرحمن الناصر" مثلا يُضيف فصلين آخرين إلى الرواية على نحو افتعالي محض، حيث ينتحر سعيد الجاسوس في حضور الخليفة قبل أن يعاقبه الأنف الذكر على فضائحه، ويزوّج الخليفة الناصر عابدة الجارية الأدبية من أخي محظيته سالم مكافأة لاستسلامه، وتخليه من نشاطاته السياسية المحرّمة (٩). ونلاحظ على المؤلّف تأثره بمفاهيمه الدينية في الحكم على مصير شخصياته، ثمّ تأثره في الحكم على منفعة الشيء أو ضرره. ففي "أبي مسلم الخراساني" تلجأ البطلة إلى الدير وتنقطع من جنس البشر حتى الموت. والظاهر أنه لا داعي لها لهذا الانقطاع لأن البطل الذي غلب عليها اليأس من أجل قتله، لم يُظهر عن ميوله نحوها بالصرحة كما فعلت هي، بل أنه على العكس قد سلب منها تسليتها الوحيدة في الحياة، ألا وهو والدها العزيز الحنون، ثمّ أمر بسجنها هي دون أقلّ مراعاة لحبّها له وتفانيها في سبيل الدعوة التي كان يدعو الناس إليها (١٠). وفي "فتح الأندلس" نراه يلوم الملك رودريك على شرب الخمر والإكثار فيه، ولكن إذا تناول البطل فإنه يُصبح مؤنسا ودافئا بالنسبة له، ثمّ أنه يقوم مقام الدواء على يد رئيس الرهبان لأحد الأديار (١١).

وأخيرا نأتي إلى أنواع الحكبة موضوعا وتركيبا، فنرى أنّ روايات زيدان بسيطة من حيث الموضوع، مع كونها مركّبة من الأحداث، متنوعة مختلفة شبه حكايات مستقلة. ثمّ نرى أنها مفكّكة من حيث البناء، لا يربط أحداثها شيء، اللهمّ إلا بعض الحقائق الزمنية من التاريخ الثابت.

ونستنتج مما تقدّم أنّ روايات زيدان تخلو من الحكبة خلوا يكاد يكون تامّا، لا لعدم قدرته على وضع خطوط الحكبة المتماسكة، بل لنقص تصوره لهذا العنصر الهامّ للرواية، وتقليله أهميته. وقد صرّح في "الهلال" ردّا على استفسارات القراء بأنّه حين نشره فصلا من رواية له، لا يكون نفسه على بيّنة من أحداث الفصول القادمة (١٢). وبواعث أخرى تساهم في تفكيك الحكبة عنده، عنايته بالأحداث دون البيئته والشخصية، ثمّ إصراره على تعليم القارئ التاريخ حيث يُدخل الحوادث متشجّعة

متفرقة في أحداث "الحبكة"، كما يستطرد في بعض المواقف استطرادا. ومنها أيضا صبغه الحوادث بصبغة شعبية مبتذلة، حيثُ تبرز مصادفات غريبة تضجر القارئ وتصرف انتباهه صرفا.

#### المصادر والمراجع:

- ١- جرجي زيدان، الحجاج بن يوسف، ص: ١٣-١٧، ٤٧ و ٥٦.
- ٢- جرجي زيدان، العباسة أخت الرشيد، ص: ٥٢، ٧٠، ٨٥-٨٨.
- ٣- جرجي زيدان، أبو مسلم الخراساني، ص: ١٥٨ و ١٥٩.
- ٤- المصدر نفسه، ص: ٧٧ و ٧٨.
- ٥- جرجي زيدان، عبد الرحمن الناصر، ص: ٣٣ و ٦٧.
- ٦- جرجي زيدان، فتح الأندلس، ص: ١٨٠-١٨٣.
- ٧- محمود حامد شوكت، مقومات القصة العربية الحديثة في مصر، ص: ٩٦.
- ٨- الحجاج بن يوسف، ص: ٨٧، ٨٨، ١٤٩ و ١٥١.
- ٩- عبد الرحمن الناصر، ص: ١٦٨-١٧٦.
- ١٠- أبو مسلم الخراساني، ص: ١٧٧.
- ١١- فتح الأندلس، ص: ٤٦، ٧٨ و ١٢٩.
- ١٢- الهلال، فبراير ١٨٩٩ م، نقلا عن أحمد إبراهيم الهواري، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ص: ٥.

\* \* \*